
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

معدن ملح أوليل واستغلاله في العصر الوسيط

د. محمد بن عميرة •

موقع أوليل:

تعتبر أوليل من أشهر الملاحات الواقعة بصحراء صنهاجة،أي الجزء الغربي من الصحراء الكبرى في العصر الوسيط،ويحدد ابن حوقل(ق ٤ هـ/١٠ م) موقعها على مسافة شهر واحد من مدينة أَوْدَغُست،وشهر ونصف شهر من مدينة سجلماسة[١].
ويفيد أبو عبيد البكري(ق ٥ هـ/ ١١م)أن أوليل التي يُحمل منها الملح،إلى ما جاورها، ليست جزيرة وإنما تقع قرب جزيرة تسمى"أيوني" يُمكن الوصول إليها عن طريق الأقدام،عند الجَزْر(جَزْر مياه المحيط الأطلسي)، ولا يمكن ذلك، عند المدّ، وهي مرسى من المراسي،بينها وبين نول(نول لمطة) مسافة شهرين على ساحل البحر[٢].
ثيقوبالنسبة للادريسي(٦هـ/١٢م)،فإن أوليل هي جزيرة،ومنها تَحمِل المراكب الملح ، إلى مصب نهر النيل(نهر السنغال)الذي يبعد عنها مقدار مجرى(أي يوم من الإبحار)[٣]؛وهي حسب ابن سعيد المغربي(ق ٧ هـ/١٣ م)مدينة في الطرف الجنوبي من "جزيرة الملح" الواقعة أمام مصب النيل(نهر السنغال)،وهو حيث الطول:عشر درجات وعشرون دقيقة(١٠ ْ ٢٠ َ)وحيث العرض عشر درجات(في الواقع ١٦ ْ)[٤]

وكان سكان موريطانيا(Les maures)يطلقون تسمية أوليل على المنطقة الساحلية الممتدة من منطقة أمدْرور (Amadrour) [٥]جنوبا نحو الشمال،على مسافة سبعين كيلومترا،إلى تاهركات(Taharkat)،وفيها تقع ملاحات ترارزة(Trarza)ومنذ حوالي ١٨١٠،لم تعد تسمية أوليل مستعملة،وقد مكنت هذه المعلومات حسبH.Garden،من التعرف على ملاّحات(ملاحة)أوليل، مكان ملاحات ترارزة،تقريبا،غير أنه لم يبق أي

• قسم التاريخ ــ جامعة الجزائر

١ صورة الأرض، ط.بريل ١٩٦٧،ص١٩٢٠

٢ المُغرب في ذكر إفريقية والمغرب،وهو جزء من كتاب المسالك والممالك،ط.بغداد، ص١٧١-١٧٢

٣ القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس،مقتبس من كتاب نزهة المشتاق،تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي،الجزائر١٩٨٣ ، ص٣١-٣٢

٤ كتاب الجغرافيا،تحقيق إسماعيل العربي،الجزائر ١٩٨٢،ص٩٠؛أنظر Ch. De la Roncière:La découverte de l'Afrique au m.age,T.1memoire de l'institut royal de géographie d'Egipte,T.V.MDCCC XXIV(1924),P.349

٥- وهي أمندير على خريطة المصلحة الجغرافية لوزارة المستعمرات(الفرنسية)،تقع حوالي١٠٠ كلم شمال شرق القـــديس لويس H.Gaden:Les saline d'Aouli l, Revue du monde musulman,vol.12,no11,Novembre1910,P.436,note 3.

مبرر للشك في هذا الأمر،منذ أن قامت بعثةGruvel سنة ١٩٠٨،بالاستكشاف العلمي لموريطانيا الغربية،في المنطقة المحصورة بين القديس لويس(St Louis)وبين الرأس الأبيض(Cap blanc)[٦].وقد كتب نتائج هذا الاستكشافات التي يعتبرهاGadenواضحة جدا وكاملة،كل من A.Gruvel و Chudeau.R. في Atravers la occidental vol I.ChapV'Mauritani وساند Mauny .R.رأيGaden، على حسابMonteuil V، مترجم الجزء الخاص بالصحراء من كتاب أبي عبيد البكري، الذي جعلها تتطابق مع أرقين(Arguin)، وهذا خطأ،حسب رأيMauny[٧]، مع العلم أنMonteuil يعتقد أن جزيرة أيوني قد تكون هي جزيرة إيويلي(Auili)الصغيرة،الواقعة بين تيدرة،وبين الساحل،لأنه بالإمكان الوصول إليها دائما عن طريق معبر(Gué)تتردد عليه السلاحف[٨].

وفي رأيGadenأن جزيرة أيوني،أي جزيرة المدّ، بالنسبة للبكري،صارت جزيرة أوليل في جغرافية الادريسي،ويحتمل أن يكون هذا المصطلح الذي كرره جغرافيون آخرون،قد ساهم كثيرا في مطابقة هذه الجزيرة بجزيرة أرقين(Arguin؛ وتأكد اليوم(١٩١٠) بعد الاكتشافات العلمية للساحل(الموريطاني)أن هذا الخطأ،لعدم وجود معدن واحد للملح،في جزيرة أرقين، ولا يوجد الملح أيضا في السباخ المجاورة،حتى على السطح،ولا في رأس القديسةآن(Ste Anne)على الخريطة القديمة،وشبه جزيرة أيوني،لا تكون جزيرة ،حسب المصادر العربية،إلا أثناء المدّ، وقد اختفت، ولا شك، وسطرمال هذا الساحل الذي لم يتوقف عن المد في البحر[٩].

ويستحيل،حسب.Mauny R،معرفة أوليل غير أن موقعها،لا بد وأنّه موجود هناك، بين تويدمي (Twidermi) ،شمالا، وسكمات (Sokmat)، جنوبا،على وجه التقدير، وليس بعيدا أن يكون الأمر متعلقا،ـــبصفة خاصة بنتيررت(Nterert)وهي أهم ملاّحات ترارزة(Trarza).

ويتفقJ.Cuoq.لمع.Mauny R،في أن البحث عن أوليل يكون بين ملاحات ترارزة(Trarza)،على الساحل،وأن الملاحات لا تقع في جزيرة، غير أن بعض فيضانات نهر السنغال(النيل في المصادر العربية)تتجاوز كثيرا تلك الملاحات كما

---

6 Ibid,P.436.

٧)- أنظر: Tableau géographique de l'ouest africain au moyen age Mémoires de l'institut francais de l'Afrique,No6,Dakar1961,P.326

8 Al-Bakri:Routier de l'Afrique Blanche et Noire, dans Bulletin de l'institut français de l'Afrique Noire,T.XXX, serie B,n01,1,1968P,P106,note8

9 Les Salines d'Aoulil P.438

تتجاوز نواكشوط(Nouakchott)[١٠]أيضا،أي أن تلك الفيضانات تعْزلها عن البرّ،وتجعل منها جزيرة ،وبعد جفاف مياه الفيضانات تتصل أوليل بالبر ثانية،وهكذا...

ويلاحظ Godino V.Mأن البحر في هذه المنطقة،وبالضبط عند بياش(Biach)،من ضوةاحي ميريك(Mirik)من خط عرض ١٦٠ ٤٠ ،جنوبا،إلى مرْسى(Marsa)على خط عرض ١٨^{0} ٢٠،شمالا،قد أودع،قديما،وما زال يودع،بمساعدة السنوات الممطرة،طبقات ملحية،في أحواض،رسمتها الكثبان المفروشة بنبات الغربيون والطرفاء بان بعض السبـــــــخات تقد ملحا،في شكل لوحات يسْهل حملها على ظهر الجمل[١١].

تعريف أوليل:

يعرف ابن حوقل أوليل على ــأنها" معدن للملح ببلاد المغرب"[١٢]،وينسب كل من البكري وصاحب كتاب الاستبصار الملح الموجود بها،على شاطئ البحر(المحيط)إلى قبيلة جُدالة[١٣] البربرية،من بلاد المغرب طبعا، لكن الادريسي يعتبرها من بلاد السودان[١٤].

ويضيف ابن سعيد المغربي الذي يظهر أنه نقل معلوماته عن الادريسي،أو عن المصادر التي نقل عنها هذا الأخير،رواية مفادها:أنه" ليس في بلاد السودان ملاحة غيرها"[١٥].

وفي هذا السياق يذهب بعض الباحثين المحدثين،من أمثال بحّاز إبراهيم بكير الذي ذكر في حديث" عن أهمي الملح في التجارة مع بلاد السودان"أنه" لم يكن......بضاعة مغربية بحتة،وإنما كان التجار التيهرتيون وغيرهم يستبدلون بعض بضائعهم بالملح،في أوليل أوتوتك،ويأخذونه إلى غانة أو كوكو....." [١٦] أي أن بحّاز يعتبر،مثل الادريسي وابن سعيد أوليل جزء من بلاد السودان،وهذا خطأ،ما دام أن هذا المعدن يقع تحت سيطرة قبيلة جدالة الصنهاجية التي كانت تقطن تلك المناطق الجنوبية الغربية من الصحراء الكبرى،منذ القديم.

---

10 Recueil des sources arabe concernant l'Afrique occidentale, du VIIIau XI e siècle(bilad al-sudan),traduction et notes par J.M.Cuooq,Paris1975,P.127,notes.2

11 L'économie de l'empire portugais aux XV e et XVI e siecles,Paris 1969,P.102

١٢ صورة الأرض،ص ١٩٢

١٣ أنظر المُغرب، ص ١٧١؛مؤلف مجهول في E.Fagnan:L'Afrique septentrionale au XII e notre description extraite du Kibab el- Isticar et traduite par E.Eagnan,Constantine

١٤ القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ،ص ٣١

١٥ كتاب الجغرافيا ،ص ٩٠

١٦ الدولة الرستمية: ١٦٠ هــ- ٢٩٦ \٧٧٧-٩٠٩ م ،دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط.١٩٨٥ ، ص ٢٢٥

وينفرد ابن سعيد بالقول:إن أوليل مدينة في الطرف الجنوبي من جزيرة الملح،على البحر المحيط[١٧]غير أن.Gaden H.يلاحظ،مع ذلك،أن المصادر العربية لم تتحدث العربية لم تتحدث عن وجود قصر أو قرية بمنطقة أوليل،وهو يعود ،حسب رأيه،إلى أن استغلال السباخ لا يكون إلاّ في فصل الجفاف،ــ بعد تبخر الماء المتجمع في وسطها،بفعل أعاصير فصل الأمطار أو فيضانات النهر، وفي فصل الجفاف،ينزل الرذحل إلى الجنوب،بحثا عن مراعي أفضل،ومياه أوفر،حيث كانت الاقدالة (Les Igdala)يأتون الملاحات،ويكلفون عبيدهم بالعمل فيها،وتنصب الخيم والأخصاص ــ،قرب السباخ على شبه جزيرة أيوني[١٨].

استغلال ملح أوليل:

ويتساءل.Deviceعما إذا كان تجار أودغست هم الذين كانوا يقومون باستخراج الملح من أوليل ونقله أم أنهم كانوا يشترونه من قوافل أخرى، وعما إذا كانوا يقومون بذلك لحساب الملك فقط؟[١٩]إلا أن.Gaden H.بناء على وصف البكري لطرق استغلال معدن تاتنتال (تغازا) والتي ما زالت تمارس إلى اليوم،وقوله" ومعدن للملح آخر،عند بني جدالة، بموضع يسمى أوليل،على شاطئ البحر"يستنتج أن البكري يقصد بتعبيره أن"استخراج ألواح الملح من معدن أوليل" كان يتم بنفس الطريقة التي يستخرج بها ملح تاتنتال،ويبرر استنتاجه بأن الرّحل الذين كانوا ومازالوا إلى حد الآن وحدهم الممونين لإفريقيا الغربية،بالملح،لم ينقلوا،أبدا ،غير أن ألواحه إلى السوق، لأنها الشكل الوحيد الذي يتحمل النقل لمسافات بعيدة في القوافل والتي يستطيع التجار السودانيون ايصالها إلى أسواق المنطقة الممطرة،جنوبا دون نقص معتبر[٢٠].

ويقيس Mauny.R ما كان يحدث بالأمس على ما يحدث اليوم: حيث تستغل ألواح الملح في تويدرمي (Tuidemi) ونتيرر (Nterert) ومُجران (Moudjranne)، بطرق لم تتغير كثيرا،منذ قرون ولاشك، وتقع الملاحتان الأولى والثانية في منطقة الدراعة(La draa)، أي في منطقة الكثبان وتقع الثالثة في منطقة أفتوت(Aftout) المنخفظة التي تغمرها فيضانات نهر السنغال وتحول كثرة الماء دون التشبع التام والنهائي بالملح،ويصعب بالتالي تكون ألواح منه[٢١].

ويلاحظ Maunyأن ما يستغل اليوم ممن سبخة تويدرمي، التي يبلغ طولها ٧٠٠ م وعرضها ٥٠٠م، هو جزءها المركزي وحده، حيث يستخرج الملح من دائرة قطرها ٢٠٠م ، ويصف نوعية ملح منطقتي الدراعة وأفتوت بارداءة،بسبب هشاشة

١٧ كتاب الجغرافيا أنظر Gh.de la Roncière:op.cit.T.1,P49....

18 Les Salines d'Aoulil,P.443

19 la question d'Audagust,P.114

20 Les Salines d'Aoulil,P.443

21 Tableau geographique,P325

ألواحه،ويُعثر عليه ابتداء من عمق ٥٠ سم ويبلغ سمك المقطع المستغل منه ٠٨ سم ويتم تعريض ألواحه،بعد استخراجها،للشمس بضع ساعات،كي يصير صلبة ثم تنقل،بعد ذلك[٢٢].

وأهم ملاحة من هذه المجموعة،إطلاقا،الوحيدة التي تقدم عمليا ألواحا جيدة،بأعداد كبيرة هي ملاحة نتيررت،على بعد ٥ كلم جنوب غرب ملاحة تويدرني،ويقدر قطر المساحة القابلة للاستغلال فيها ٦٠٠٠م،يوجد فيها الملح الجوهر(Sel gemme) في عدة طبقات مختلفة السمك ٠,١٠ م و ٠,٢٥ وهي مفصولة بطبقات طينية[٢٣].

تصدير ملح أوليل:

وقد استنتجDevisse مما كتبه ابن حوقل عن وصول الملح إلى غانة عن طريق مدينة أودغست "من ناحية الإسلام"ومن أن أوليل هي"معدن الملح ببلاد المغرب"[٢٤]وما عرضه في مكان آخر من أوليل تعتبر حدا لبلاد الإسلام،أنه ليس هنالك ما يمنع من التفكير من أن أغلب الملح المبيع لملوك السودان يكون قد وصل من الملاحة التي تبعد بمسافة شهر عن أودغست أي أوليل،مما لا يقصى إمكانية وجود ملاحات أخرى،أقل أهمية،والتي لم تلفت انتباه التجار القادمين من الشمال آنذاك[٢٥].

وإذا حصل وأن استخرجت ألواح ملح من سباخ الجنوب الصحراوي ،فإنها لم تترك أي أثر يدل على ذلك[٢٦].

ويرىDevisseأن الوصف غر الدقيق(من قبل الجغرافيين العرب) يسمح بالتفكير في أن أوليل لم تكن، في القرن العاشر الميلادي، خارج الاتصالات العادية،بين الشمال والجنوب[٢٧] وهذا ينسجم،ببيعة الحال،مع ما ورد في نص ابن حوقل.

ويلاحظDevisseأن البكري،عندما تحدث عن معدن أوليل(في القرن الحادي عشر الميلادي)،لم يشر،ولو مرة واحدة،إلى أنه كان يمون أودغست بالملح، بل يقول: ومن هناك تتحمله الرفاق... إلى ما جاوره"[٢٨] (أي أوليل)مما يدل ،في نظرDevisse،على أن تجارة أوليل صارت إقليمية؛وليست دولية" مثلما كانت قبل من الزمن(أي في عهد ابن حوقل)؛ويلاحظDevisseثانية أن البكري سجّل المعلومات في

[22] Ibid

[23] Ibid

[٢٤] أنظر صورة الأرض،ص٩٢؛مع ملاحظة أن Devisse.ترجم هذه العبارة كالتالي هي"معدن الملح الرئيسي للمغرب،أنظر

La question d'Audaguste,Tegdaoust I, recherches sur Aoudaghost Paris1970,P114

[25] Ibid

[26] Ibid,P332

[27] Ibid,P114

[٢٨] أنظر نص البكري في المغرب،ص١٧١

إشارته(Notice)الثانية المؤرخة سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧-١٠٦٨ م ؛أما في إشارته الأولى: فقد قدم معلومات أخرى مفادها أن أهم معدن هو الذي يزجد بتاتنتال(أي تغازا) ومن هناك يصدر الملح إلى سجلماسة وغانة وسائر بلاد السودان[٢٩].

مع العلم أن البكري أظهر استغرابه من هذا المعدن،دون أن يذكر أنه الأهم، كما يقولDevisseالذي يلاحظ أن هذا الجغرافي لم يقدم آنذاك معلومات في شأن مدينة أودغست التي سبق وأن أرثى تخريبها من قبل المرابطين[٣٠].

ويستنبطDevisseمن هذه المعطيات أن مدينة أودغست،سواء خربت أو لم تخرب،لم يعد لها،حوالي١٠٦٧-١٠٦٨ م (٤٦٠هـ)،احتكار تجارة الملح،وكذلك الأمر بالنسبة لأوليل المصدر الرئيسي للملح الذي اشترته غانة،إذ تمت ،في نظره،أقلمة تجارة الملح،ويحتمل أن تكون أوليل قد صارت تصدر ملحها للسنغال في حين أصبحت تاتنتال(تغازا)تصدر ملحها نحو غانة والنيجر[٣١].

ويرجح مؤلفنا أن يكون فتح هذا المعدن اتلأخير لسببين،يتمثلان في: الصعوبات التي وجدها تسويق ملح أوليل أوّلا في نمو العلاقات التجارية الصحراوية،ثانيا والصعوبات التي وجدها التسويق واضحة،في نظره:فأوليل واقعة في بلد جدالة،وهم يجاورون البحر،ليس بينهم وبينه أحد،وقد لعب هؤلاء دورا أساسيا،ـــخلال المراحل الأولى من تنظيم المجتمع المرابطي لكنهم انشقوا عنه،قبل١٠٥٨ م وانسحبوا في اتجاه البحر،وبعد صدام عنيف مع لمتونة،وقعت القطيعة بين الطرفين،ولم يوجه المرابطون،بعد ذلك سلاحهم ضد جدالة،ولا شك أن هذه الاضطرابات قد أربكت المنطقة الغربية لموريطانيا،منذ١٠٥٠ على الأقل،وجعلت سير القوافل انطلاقا من أوليل عميلة صعبة جدا[٣٢].

والمتأمل في مثل هذا الكلام يبدو له أنه يفتقد إلى نوع من الانسجام،بيّن حديثه عن أقلمة تجارة الملح واختصاص أوليل في الاتجار مع السنغال واختصاص "تاتنتال"في الاتجار مع غانة والنيجر وبين الارتباك الذي يتحدث عنه هنا، بعد ١٠٥٠ م،والذي يقول عنه بأنه جعل عملية عملية سير القوافل صعبة جدا، اللهم إلاّ إذا تصورنا أن جدّالة استغلت نهائيا عن المرابطين،في الجهة الغربية من موريطانيا الحالية واحتكرت التصرف في ملح أوليل وصارت توجهه نحو نهر السنغال،واحتكر المرابطون ملح تاتنتال ،وصاروا يسوقونه في كل من غانة والنّيجر وأصبح كل طرف يمنع،أو على الأقل يخلق صعوبات لقوافل الطرف الآخر، عند مرورها بالمناطق الواقعة تحت سيطرته،وهذا ما لم تشر إليه المصادر على الإطلاق ،والمعروف أن

---

29 op.cit.PP.114-115
30 Ibid,P115
31 Devisse,op.cit.P115
32 Ibid

الصراعات بين مختلف القوى السياسية في دار الإسلام عموما، لم يكن لها أي تأثير على سير الحركة التجارية لأن البلاد الإسلامية كانت دائما مفتوحة على بعضها البعض تجاريا وثقافيا.

نقل ملح أوليل:

أورد الادريسي في القرن السادس الهجري(١٢م) أن المراكب تحمل من"جزيرة" أوليل الملح إلى مصب نهر النيل(السنغال)الذي يبعد عنها بمقدار مجرى(يوم)ثم تواصل السير عبره إلى مدن "سلى وتكرور وبريسّى وغانة وسائر بلاد ونقارة وكوغة وجميع بلاد السودان[٣٣] ويتوقف.H. Gaden عند كلام الادريسي هذا،محاولا الربط بينه وبين كلام البكري،فيستنتج أن الملح كان يتصدر ،حسب مقصده،إما في القوافل(مثلما ذكر البكري) ويعلق على هذه الفقرة بالذات قائلا"إن البكري يقول في الواقع:إن القوافل تذهب من هناك بالملح إلى جميع الجهات المجاورة "[٣٤]؛ وإما عن طريق الوسائل البحرية والنهرية_كما ذكر الادريسي)وهذه الأخيرة تستعمل بطبيعة الحال،لتزويد الوقين الكبيرين للسنغال الأوسط،تكرور وسلى(Silla) [٣٥].

كما يتحدث المؤلف الأخير عن مبادلات كانت تتم،حسب رأيه،في شبه جزيرة أيوني تسلم فيها الأقمشة والذرة(Mil)والدقيق في مقابل الملح والعنبر الرمادي الذي كان يجمع آنذاك من الساحل ثم تتكون اللقوافل ندو أودغست وغانة وتبحر المراكب التي يحتمل أن تكون من جذعيّات الصيادين السنغاليين(Guolofs)نحو مصب النهر لتصعد في تجاهه صنغانة وتكرور،مع الإشارة إلى أن gadenلم يوثق هذه المعلومات التي لا يوجد لها أثر في اى النصوص العربية المستخدمة في هذا البحث،كما أن البضائع التي ذكر أنها تبدل بالملح والعنبر،عادة ما يكون بعضها مثل الأقمشة من شمال الصحراء،والبعض الآخر مثل الذرة ووالدقيق،من جنوبها،أي من بلاد السودان،فها يعني بذلك أن قوافل الشمال كانت تلتقي بقوافل الجنوب هناك؟

غير أنMauny يستبعد تماما تمكن المراكب أي الجذعيات[٣٦](Pïrogue) المحتملة بالملح من النزول على طول الساحل الاطلنطي واجتياز الموج العالي،عند مصب نهر السنغال،ويقترح أن يفسر نص الادريسي على أن يشير إلى المسافة التي

---

٣٣ القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص٣١-٣٢

٣٤ أنظر
Les salines d'Aoulil ,Revue du monde musulman,vol.12,no 11,;Novembre 1910, P437,note4

٣٥ يطلق سكان موريطانيا (Les Maures) تسمية تكروري جمع تكارير (Tekarir)على السكان المستقرين في فوتة (Fouta)السنغالية،ويطلق عليهم الولوف(Ouolofs) السنغاليون اسم توكولو(Toukoulor)التي اخذت منها تسمية توكولور Foukoulor.الفرنسية؛وهم يطلقون على أنفسهم نتسمية فوتنكوبيFoutan-Kobé.أو هالبوتارنHalpoutar'en.(أنظر H.Gaden:op.cit.P.437

36 Ibid,P437

تقطعها المراكب في بعض السنوات الممطرة جدال في شبكات خلجان نهر السنغال أو شعابه المتجهة .نحو أفتوت(Aftout)بحيث أنها تصل أحيانا إلى أقل من مسافة نصف يوم من نتيررت(Nterret)،وفي هذا ربح معتبر،للوقت،بالنسبة للنقل البري[٣٧]وهو ما دفع الادريسي الى التفكير في أنه كان بإمكان تلك المراكب القدوم إلى أوليل لشحن الملح،والصحيح في نظر.Maunyأن ألواح ذلك الملح كانت تُحمل،في غير السنوات الممطرة جدا،مع الملح المسحوق المكدس في قرب من ملاحة أوليل إلى نهر السنغال على ظهر القوافل وعندئذ يشحن في مراكب كبيرة تصعد نهر السنغال إلى مدينة كايس(Kays-Médine)حيث المحطة النهائية للملاحة،وكان ينقل من نقطة من نقاط التوقف،على الجمال،والثيران الحمالة،والحمير،نحو الأسواق المحلية الصغيرة[٣٨]

ويلاحظ.Maunyعدم وجود أية معلومة خاصة بالطريقة التي كان يسوق بها ملح أوليل في العصر الوسيط،غيلار أن الطرق،في رأيه،لا تكون قد اختلفت كثيرا عن اليوم،واليوم فإن الملح يظهر في شكل ألواح مختلفة الأبعاد والأوزان،حسب الطبقات التي يستخرج منها:فيشكل لوحان ،يزن الواحد منهما من٨٥ كلغ إلى٩٠ كلغ،حَمْل جمل[٣٩] وثلاثة يزن الواحد منها من ٤٢ إلى٤٥ كلغ ثور حمالPorteurواثنان يزن الواحد منهما من ٣٠ إلى ٣٥ كلغ، حمل حمار[٤٠]مع الحرص على أن لا يتجاوز وزن ما يحمله الجمل ١٨٠كلغ وما يحمله الثور الحمال ١٤٠كلغ وما يحمله الحمار٧٠ كلغ[٤١]

<u>**أقدمية استغلال ملح أوليل:**</u>

لا تبين المصادر متى بدأت عملية استغلال ملاحة أو معدن أوليل،ولكن إذا أخذ بعين الاعتبار ما ذكره Mauny من أن الاتصالات عبر الصحراء،كانت موجودة قبل وصول العرب الى افريقيا الشمالية(بلاد المغرب)في القرنين السابع والثمن الميلاديين(١ و ٢ هــ)بكثير، فالعربات.(Les chars) القرمانتية وغيرها كانت في الألفية الأولى قبل الميلاد، تربط بين ضفتي الصحراء،بين المغرب الأقصى وفزّان من جهة، وبين منعطف نهر النيجر،من جهة أخرى،ويبقى من المنطقي التفكير بأن التجارة كانت أحذ الأهداف الرئيسية لتلك الاتصالات،غير أن هذه الأخيرة ،في حدود

---

٣٧ الجذعيات،هي زوارق تصنع من جذوع الأشجار (المنهل،ص٧٧٧)

38 Tableau geographique,P327

39 Ibid,PP.357-358

40 Ibid,P357

٤١ Ibid,P326 لاحظ Godinho في تجربة حديثة أن وزن حمولة الجمل من الملح يتروح من ١٢٠ إلى ١٦٠ كلغ وأن وزن ٢٠٠ كلغ تكفي لإرهاقه°(L'économie de l'empire portugais,P.119)

معارفنا الحالية،كما يقول، لا يظهر أنها عرفت أهمية حقيقية إلا بعد وصول العرب إلى المنطقة[٤٢].

ويرى نفس المؤلف أن نوعا من التجارة تكون قد تواصلت،على نطاق ضيّق،بين بلاد السودان وبين السوس(الأقصى)بواسطة القبائل البربرية الكبيرة المنتشرة غرب الصحراء، من الأطلس إلى أدرار موريطانيا،ثم يتساءل عما إذا لم يكن من الطبيعي أن يتبادل البربر الليبيون المسيطرون على الصحراء،وبالتالي على الملاحات،مع السودان المسيطرون على بلاد الذهب... منتوجاتهم،منذ وقت قديم جدا،وهذا ما يفسر،في نظرة،أن العرب بمجرد وصولهم إلى بلاد السوس أرسلوا حملة عسكرية إلى بلاد السودان سنة ٧٣٤ م (١١٦ هـ) واستولى قائدها حبيب بن أبي عبيدة على كمية معتبرة من الذهب،وسيصنع العرب من الطريق اللمتوني القديم محور للاتصالات التي تربط بين قطبي عالم لمتونة،السوس،وبين أدرار طاقنت(Tagant) [٤٣]

ويشير Maunyهنا إلى ما أورده ابن عبد الحكم أن عامل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك،علبيد الله بن الحبحاب الذي تولى مهامه سنة ١١٦ هـ-٧٣٤ م،استعمل ابنه اسماعيل على السوس واخرج حبيبا بن أبي عبيدة الفهري إلى":السوس" وأرض السودان فظفر بهم ظفرًا لم يُر مثله وأصاب ما شاء من ذهب... ثم غزا أيضا البحر ثم انصرف"[٤٤]

ويعلق كلود كاهن(C.Cahen)عما أصاب حبيب بن ذهب بقوله:إن غنيمة غزوة ٧٣٤ م تدل على أن الذهب كان مستغلا،وأن هناك ،إذا،حث على ذلك ولكن في إطار جهوي محض،ويرى أنه من المحتمل عدم وجود أهمية كبرى يمكن تعليقها على هذه الجملة"المذهلة" التي انطلقت من السوس إلى بلاد"السودان"وهو تعبير غامض،وهدفها غير معروف بالضبط،وهي لا تختلف،بدون شك عن كل الحملات الآتي قادها العرب،في كل الاتجاهات،خارج فتوحاتهم الخاصة،وقد عثر على الذهب حقيقة،مما سمح باكتشاف وجوده،إن لم يكن يعلم ذلك مسبقا،غير أنه لم ينتج عن هذه العملية تنظيم تجاري آنذاك[٤٥]

---

42 Tableau geographique,P.398

43 Ibid,PP300 et399

٤٤ كتاب فتوح إفريقية والأندلس،نشره وترجمه إلى الفرنسية ألبير قاطو A. Gateau ص ١٢٢

45 L'or du soudan avant les Almoravdes :Mythe ou réalité ,le sol,la parole et l'ecrit,melange en hommage a Raymond Mauny,histoire d'outre mer 1961-PP.540-41

ويلاحظ إبراهيم فخّار أن ابن عبد الحكم لم يبين أن المقصود بأرض السودان هي غانة،علما بأنها كانت موجودة في أيامه،قبل ٨٧٠ م، لأن الفلكي الفزاري الذي ذكر قبل القرن الثامن عدة بلاد إفريقية، ذكر منها إقليم غانة بلاد التبر[٤٦]

وإذا تحدثنا عن حاجة بلاد المغرب وغيرها من البلاد الإسلامية إلى ذهب بلاد السودان أو تبرها لا بد من الحديث عن حاجة هذه الأخيرة إلى ملح بلاد المغرب: ذلك أنها تفتقده تماما،لأن الطبيعة،كما لاحظ شارل دو لارونسيار (Ch.La Roncière)وزعت الملح بوفرة،شمال الخط الذي يربط واحة سيوة شرقا بالرأس الأبيض غربا؛ أمّا جنوبه فقد أودعت الذهب[٤٧] وباستثناء السواحل البحرية فقد اقتصر سكان بلاد السودان والغابات على استخلاص ملحهم من رماد النباتات،في حين أثبتت دراسات أنثروبولوجية مختلفة أن حاجة حسم الإنسان،وبالأخص الإنسان الأسود للملح المعدني مُلِحّة ،وحيوية لا يعوضها استهلاك الملح المستخرج من النباتات،لأنه يعرف أكثر من الإنسان الأبيض،فيحتاج إلى ذلك حتى يعوض جسمه ما أفرزه من العرق،وعليه أيضا إعطاء الملح لحيواناته لتعويض غياب النباتات المالحة[٤٨].

فإذا سلمنا بوجود اتصالات قديمة بين البربر والسودان، و وجود حركة تجارية ،ولو ضعيفة بينهم،وعرفنا أن الصحراء، موطن أولئك البربر،لمتكن فيها أية منتوجات صناعية أو زراعية،يبقى الملح وحده هوة السلعة التي بإمكان البربر تصديرها إلى بلاد السودان للحصول على مقابلها من الذهب،وهو ما يفسر وجود الكميات التي عثر عليها العرب المسلمون في بلاد السوس.

ويوافق هذا الاستنتاج ما ذهب إليه.ROSENBERGER B من أنه على الرغم من أن الجمل وحيد السنام قد سهل الاتصالات،عبر الصحراء،إلا أن الاقتصاد المتوسطي لم ينشطها بحيث لم يكن هناك الذهب يصل المدن والمرافئ[٤٩].

وقد شجع ما عثر عليه العرب،عكس ما ذهب إليهMauny[٥٠]،علىة تنظيم طريق تجاري عبر الصحراء الى بلاد السودان،ذلك أن أبا عبيد البكري في ووصفه للكريق"من تامدلت إلى مدينة أودغست": يشير إلى أن بئر الجمالين الواقعة على مرحلة

---

٤٦ تجارة القوافل في العصر الوسيط ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى ،تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،معهد البحوث والدراسات العربية،بغداد ١٤٠٤–هـ–١٩٨٤ م ، ص٦٣

47 op.cit.P88

48 R.Capot-Rey:L'Afrique blanche française ,T.2,Le sahara français,Presses universitaires de France;Paris 1953,P.214

49 L'histoire économique du Maghreb,Handbuch der orientaliststik,Erste Albteinlung VI,Band,6 Abschnitt,Teil1,Leiden-Koln,E.J.Brill 1977,P.207

٥٠ بالنسبة لـ.Mauny R.فإن ما عثر عليه العرب ممن ذهب،أثناء الحملة التي قادها حبيب بن أبي عبيدة لم ينتج عنه تنظيم طريق تجاري آنذاك(Tableau geographique,P.541)

من تامدلت و"عمقها أربع قامات من أنباط عبد الرحمن بن حبيب"[٥١]كما يشير إلى "بئر(أخرى)أنبطها عبد الرحمن بن حبيب واحتفرها في حجر أدعج صلب طولها أربع قمات"[٥٢]على بعد أربع عشرة مرحلة من البئر الأولى ،وعلى ثلاثة مراحل أخرى بئر ثالثة"يقال لها ويطُونان،وهي كبيرة لا تنزف،ماؤها زعاق... وهي من عمل عبد الرحمن بن حبيب أيضا،طولها ثلاث قامات..." [٥٣].

ولا يذكر البكري ما من شأنه أن يساعد على التعرف على هويّة عبد الرحمن بن حبيب هذا،ولا على تاريخ حفرة تلك الآبار، غير أن المصادر عن أبن الحبيب بن عبيدة يُسمى عبد الرحمن،خاض إلى جانبه،وإلى جانب كلثوم بن عياض معركة بقدورة أو نقدورة،ضد الخوارج الصفرية،على وادي سبو، سنة ١٢٣ أو ١٢٤ هـ/٧٤٠-٧٤١-٧٤٢ م، وبعد قتل والده وهزيمة أصحابه لجأ عبد الرحمن إلى الأندلس،ومكث هناك إلى سنة ١٢٦ هـ/٧٤٤ م ،وعندئذ عبر البحر إلى تونس وقام بتأسيس الإمارة الفهرية[٥٤] فهذا الابن، لاشك وأنه نفسه عبد الرحمن بن حبيب الذي حفر الآبار التي ذكرها البكري على الطريق الذي يعبر الصحراء إلى بلاد السودان،وإذا ثبتت صحة هذا الاستنتاج ،فإن تاريخ حفر تلك الآبار لا بد أن يكون محصورا فيما بين سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م، تاريخ الحملة التي قام بها والده إلى بلاد السودان وبين ١٢٣ -١٢٤ هـ/٧٤٠-٧٤١-٧٤٢ م، تاريخ لجوئه إلى الأندلس بعد هزيمة بقدورة، وإذا ما تأكدت صحة هذه المعلومات يمكن أن يستنتج منها،أولا الدليل المادي الذي يؤكد قيام حملة حبيب بن أبي عبيدة على بلاد السودان،والذي يكون قد كلف قبلها،أو أثناءها،أو بعدها بقليل،ابنه عبد الرحمن بمهمة حفر تلك الآبار،وثانيا أن طريق تامدلت-أودغست، إذا،كانت حتى ذلك الوقت،يحتاج إلى تنظيم أكثر،كي تعبره القوافل/من الشمال إلى الجنوب،ومن الجنوب إلى الشمال،وقد حدث هذا التنظيم،إذًا، منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري،أي النصف الأول من القرن الثامن الميلادي.

وفي اعتقاد.Mauny Rفإن وصول التجار العرب إلى أودغست وغانة وغيرهما،ابتداء من القرن الثامن (الميلادي)ربما كان منشطا قويا لزيادة إنتاج الذهب الذي كان،قبل ذلك،خاصا بالسوق الداخلية،ولا تعبر الصحراء منه سوى نسبة قليلة،في مقابل منتوجات متوسطية[٥٥]وهو ما يتفق تماما مع ما ذهب إليه.Lombard M،من أن استقرار السيادة الإسلامية،على القبائل البربرية،بعد حملات عقبة بن نافع،في منطقة

---

٥١ المُغرب،ص١٥٦

٥٢ نفس المصدر ،ص١٥٧

٥٣ نفسه

٥٤ عن هذا الموضوع أنظر محمد بن عميرة،دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، الجزائر ١٩٨٤،ص٧٤ فما بعدها من عدة صفحات.

55 Tableau geographique,P.300

طرابلس سنة ٦٦٤ م (٤٦ هـ)،ويقصد بها تلك الحملة التي وصل فيها عقبة إلى كوّار[٥٦]،وفي المغرب الأقصى سنة ٦٨١ م (٦٣)هـ،ويقصد بها الحملة التي وصل فيها نفس القائد،في ولايته الثانية على بلاد المغرب،إلى السوس الأقصى[٥٧]،مكنت من السيطرة على المحطات النهائية،في طرف القوافل الصحراوية وأن اعتناق الإسلام وانتشار التجارة الإسلامية،نحو الجنوب،كان عليهما ربط العلاقات الصحراوية،منذ القرن التاسع الميلادي(٣هـ)،بالمجال الاقتصادي المتوسطي والتمكين من وصول ذهب السودان عن طريق الصحراء،نحو بلاد المغرب،ومن هناك نحو الغرب والشرق الإسلاميين،وأبعد من ذلك[٥٨].

وفي المقابل، كانت القوافل تحمل إلى بلاد السودان،إضافة إلى الملح،الصمغ،أي القطران النباتي،وحلي الزجاج الأزرق(النُّظم)،وخواتم النحاس والقمح والتمر والزبيب، وثياب مصبغة بالحمراء والزرقة والصوف والخرز،أي المرجان والكتب والعطور وبالأخص القرنفل والمصكي وغير ذلك[٥٩].

ويلاحظ.Lewecki T أن أول من وصف طريق: تاهرت، سجلماسة-أودغست غانة هو اليعقوبي (حوالي ٨٩١-٨٩٢،)٢٧٨ هـ)،وكانت سجلماسة، الواقعة في ما يسمى اليوم بلاد تافلالت، تشكل نقطة انطلاق أغلب القوافل المسافرة،عبلر الصحراء،إلى السودان الغربي، وقد أسس الصفريون بها دولة مستقلة،حوالي ٧٥٧-٧٥٨ م، استمر حتى منتصف القرن العاشر(٤ هـ) [٦٠].

ومما يستخلصه هذا المؤلف، في نهاية بحثه:أن معطيات المصادر العربية التي في حوزته وبالأخص الاباضية منها،تبين أن أوائل التجار المسلمين،الذين عُرف تواجدهم بالسودان الغربي،قدموا من تاهرت،وكانت غالبيتهم،على الأقل،على المذهب الأباضي،والأكيد حسب رأيه،أنهم كانوا هم التجار الأوائل الذين وصلوا تلك المنطقة،منذ أن فتح العرب بلاد المغرب،إذ يتوقع أن يكون تجار مسلمون (ويقصد بهم

---

٥٦ عن هذه الحملة أنظر ابن عبد الحكم،فتوح إفريقية والأندلس، ص٦٠ و ٦٢

٥٧ عنها أنظر نفس المصدر، ص٧٠

58 Les métaux dans l'ancien monde du VE Siècle,Paris-La Haye 1974,PP.207-208

٥٩ عن موضوع الصادرات المغربية إلى بلاد السودان،أنظر L'or du :E.F.gautier Soudan,dans l'histoire, annales d'histoire économique et sociale,T.VII,No32-31Mars1935,P118. البكري:المصدر السابق، ص١٥٨، وهنا وهناك؛ الادريسي: المصدر السابق، ص٣٤، وهنا وهناك،الشيخ الأمير عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وأثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر ميلادي،تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد العلوم والدراسات العربية، بغداد ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م،ص٨٥ فما بعدها.

60 L'état nord-africain de Taret et ses relation avec le soudan occidental a la fin du VIII E et au IX E siècle, cahiers africains,vol.II,1965,P.527

اباضيين)قدموا من مدينة سجلماية الصفرية،ومدينتي زيز ودرعة،أو تجار بربر،من مدينة ترقلة،عاصمة السوس الأقصى وسبقوا الاباضيين الذين ظهروا في أسواق غانة وكوكو،ومدن سودانية أخرى سنة ٧٨٠ م [٦١] (١٦٤-١٦٥هـ). وقد أشاد.Devisse Jبما توصل إليهLewickiمن نتائج تبين أن الرستميين أخذوا يهتمون بإقامة علاقات مع كوكو،منذ ٧٨٨ م ، مبينا أنه كان،على الذين يرغبون في السفر إلي هذه المدينة،مرورا بتادمكة،أن يصلوا إلى الطريق الذي يمر عبر بسكرة الى وارجلان وفي نفس الوقت كانت إمارة سجلماسة التي أسست حوالي ٧٥٧-٧٥٨ م (١٤٠ هـ)،تحاوا على ما يبدو له، أن تجعل العلاقات الجنوبية أكثر انتظاما،وقد انتقلت سلطة المدينة الجديدة،حوالي ٧٧٠ م(١٥٤هـ) إلى أسرة بني مدرار التي احتفظت بالسلطة فيها مدة قرنين تقريبا،وبعد قرن آخر،كما يضيفDevisse، فإن طريقا معروفا لكنه غير منظم،كما ينبغي، ربط سجلماسة ببلاد السودان،في فترة سجلت ،حسب رأيه،أكبر نشاط تجاري بين أوليل والنيجر، عن طريق أودغست[٦٢].

ويستنبط Devisseمما يسميه الوصف،غير الدقيق لمسالك الصحراء،أن أوليل ،معدن الملح،لم تكن في القرن العاشر(٤ هـ) خارج الاتصالات العادية،بين الشمال والجنوب[٦٣] ويبدوله أن المرابطين الذين تمكن مؤسس دولتهم،عبد الله بن ياسين،من الاستيلاء على سجلماسة سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٣-١٠٥٤ م، وعلى أودغست بعدها،استطاعوا السيطرة على هاتين النقطتين خلال عامين،ولا يظهر ،حسب رأيه،أن التزامن بين العمليتين،بالنسبة لكثير من المؤرخين،من باب الصدفة،بل يدخل ذلك في إطار خطة مرسومة،هدفها سيطلارة صنهاجة الجنوب على الطريق التجاري الغربي وطرد الزناتيين منه[٦٤].

أما تدخل أبي بكر بن عمر للقضاء على تمرد قبيلة جدالة سنة ٤٦٣ هـ-١٠٧١-١٠٧٢م ، فقد مكن المرابطين،حسبLagardére Vمن السيطرة على قطبي انطلاق الملح، أوليل وتاتنتال)تغازا)لأنه لم يكن في استطاعة أمراء لمتونة أن يتركوا المبادلات التجارية ،التي كانوا يعولون عليهات لتموين إدارتهم،تنهار أي أن سبب قضاء أبي بكر بن عمر على تمرد جُدالة هو إعادة أحد أقطاب تجارة الملح،هو أوليل،إلى منطقة النفوذ المرابطي[٦٥].

ولأن ابن حوقل،كما يضيف نفس المؤلف،أوضح أن علاقات ملك أودغست بملك غانة كانت مؤسسة على الضرورة لاحتفاظ أحدهما بالملح القادم من الشمال والذي

---

[61] Lewiski op.cit,P335T3
[62] La question d'Awdagust,TegdaoustI, recherches sur Aoughost,PP 136-137
[63] Ibid,P114
[64]orientalistich Ibid ,P132 L'histoire économique :B.Rosenberger du Maghreb,Hanbuch de Erst ,Abeilang,,VI,Band Albehnitt,teil,Leiden-Koln,EJ.Brill1977,P212
[65] Les Almoraivides jusqu'au règne de yusuf b.Tasfin.ed L'Harmattan,Paris1989,P86

ينقص الآخر،مثل بقية بلاد السودان،واحتفاظ الثاني بالذهب الذي كان نقله إلى بلاد المغرب يحقق فوائد كبيرة[٦٦]كان على المرابطون أن يستولوا،بعد أودغست وأوليل،على غانة كي يضمنوا استمرار التزود بحاجتهم من الذهب،ويضعوا حدا لتبعيتهم إلى غانة[٦٧] وقد سيطر الملثمون،بعد قيام دولتهم على أسواق الذهب والملح،في الساحل السوداني،وعلى شبكة طرق الصحراء الصنهاجية(الغربية)،وصار الذهب يتدفق مباشرة،نحو المغرب الأقصى والأندلس والملح يشحن، بطبيعة الحال ،إلى بلاد السودان.

تحول طرق تجارة الملح "إلى الشرق من الطرق الأولى:

وفي رأيLagardéreفإن المصادر المدروسة كلها،تؤكد أن النشاط الاقتصادي، على المحاور الصحراوية الكبرى،لم يكن أبدا،أكثر رواجا من فترة(الغزو)المرابطي الذي أعطى تلك المحاور وحدة استغلال كبرى،وهذا (الغزو)،عكس ما تردد في أسطورة راسخة بقوة،لم يخرب التجاري. ويؤيد نفس المؤلفDevisse.فيما يعتقده ،من أن الخلافات الداخلية للمجتمع المرابطي الأول[٦٨] تكون قد ساهمت في تحويل الطرق التجارية نحو المشرق[٦٩].

مع العلم أنDevisseينتهي إلى القول: بأن الشروط مهيأة لزوال التجارة بين أوليل،من جهة، ،وبين أودغست وغانة ،من جهة أخرى،في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (٥هــ)، لصالح تاتنتال، وبالأخص، منذ تاريخ تخريب أودغست سنة ١٠٦٧ م،، تقريبا : فالطرق الصحراوية في نظره، لم تحول قبل تلك السنة ،شرق الطرق الأقدم، باتجاه تاتنتال وبعدها،لم ترد أيّة إشارة في شأن وجود تجارة هامة بين أوليل وأودغست وغانة باستثناء التكرار المحض لكلام ابن حوقل[٧٠]

---

[٦٦] Lagardere:op cit.P86 ؛مضمون نص ابن حوقل المشار إليه هو:" وملك أودغست هذا يخالط ملك غانة،وغانة من أيسر ما على وجه الأرض من ملوكها،بما لديه من الأموال المدخرة من التبر...وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة،من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام،فإنه لا قوام لهم إلا به..."ط(صورة الأرض،ص١٠١).

[٦٧] يعتقد Lagardere أن السبب الاقتصادي،لم يكن وحده،وراء الاستيلاء على غانة،بل تضاف إليه الصراعات القبلية والاعتبارات الدينية(المذهبية)،بين صنهاجة السنية وبين زناتة الأباضية
(les Almoravides ,P.87.sqq)

[٦٨] عن هذه الخلافات أنظر محمد بن عميرة تعليقات حول آراء.Devisse Jالخاصة بسكان أودغست في القرون٣-٤-٥ هــ-٩-١٠-١١ م،حولية المؤرخ، يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين،العدد٦ جويلية ٢٠٠٥،ص ٥٧ فما بعدها من عدة صفحات.

[69] L'histoire:B.Rosenberger;les métaux dans l'ancien monde,P.234:M..Lombard economique,P212

[70] Les Almoravides ,P86

كميات الملح المصدرة من أوليل إلى بلاد السودان:

يعترفDevisseأنه ليست لديه فكرة عن عدد القوافل التي كانت تجلب سنويا الملح إلى أودغست،غير أنه يعتقد أن كل شيء يبعث على التفكير بأنها لا تصل سوى مرة واحدة ،في العام الواحدة،ويرجح أن تكون أعدادها كبيرة،وبالأخص عندما يكون وصولها من الصحراء،وليس من أوليل فقط[٧١] وهو ما يختلف مع ما سجله-Capot Reyعن القوافل الكبرى المسماة،حديثا الأزَلاَي، ومعناها بالسودانية تجمع الجمال. تتنقل مرة في العام، في الفترتين القصيرتين اللتين تفصلان موسم الحرارة الشديدة،وموسم البرد والعواصف الرملية القوية،أي فصلي الربيع والخريف،من منطقة الساحل السوداني إلى الملاحات"[٧٢] ولا يعرف على أي أساس بنىGodinhoرأيه القائل:إنه منذ القرن العاشر الميلادي ،على أكثر تقديرـــ،أخذت القوافل القادمة من أودغست تجتاز الطاقنتLe Tagantللوصول إلى أوليل بمنطقة طرارزة كي تحمل الملح على أسواق السودان[٧٣] ،ومنذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، وربما قبل ذلك،كان السودان،حسب نفس المؤلف،يستغلون ملاحات تغازا وكان وصول الأزالاي سنويا،محملة بالملح،إلى غانة ومدن الإمبراطورية السراكولية الأخرى[٧٤]وفي مكان آخر يناقض نفسه قائلا:" إن المسلمين في المغرب والملثمين**(**لنلاحظ عملية التفرقة**)** كانوا يتعاطون التجارة وحدهم،على ما يبدو،إلى القرن الثاني عشر ،ومنذ نهايته أخذ السودان يسافرون عبر الصحراء لممارسية جنوب غرب المغرب الأقصى[٧٥]، أي المنطقة التي تقع فيها أوليل.

وقد يكون هذا الرأي الأخير أقرب إلى الصواب لأن المصادر العربية لا تتحدث إطلاق عن أي نشاط تجاري للسودان في الصحراء ،فيما قبل نهاية القرن الثاني عشر الميلادي،وابن بطوطة هو أول من تحدث من أصحاب عن وصول السودان في القرن الرابع عشر الميلادي ،إلى تغازا لحمل ملحها[٧٦]ومن ثمة، لا يستبعد أن تكون تلك العملية،إذا،قد بدأت خلال القرن الثالث عشر.

وقد سجلGodinho.ما أورده ابن خلدون من أن القوافل التي كانت تتوجه من مالي إلى تكدا والقاهرة تتكون من ١٢٠٠٠ جمل وأن الأزالاي التي كانت تتردد على معادن ملح كوّار،،في أقادس(Agadés)لم يكن عددها يقل عن عشرين ألف(٢٠,٠٠٠)

---

71 La question d'Awdaguste,P.116

72 L'Afrique blanche Pris 1939 ,T.2P.215

73 L'économie de L'empre portugaise,Paris1969,P108

74 Ibid,P.105

75 Ibid,P.118

٧٦ أنظر رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،دار الكتاب اللبناني،مكتبة المكتبة ،ص٤٤١

بعير، ومن هذه المعطيات يستنتج أن عدد الجمال في العصر الوسيط،لم يكن بدون شك ،أقل من ذلك وقدرة حمولة قافلة كهذه ،بعد إسقاط الحيوانات المحملة بقرب الماء وأكياس الأمتعة والمؤن لا يقل عما يقارب الألف طن،بكل تأكيد،وبالتالي فإنه على الرغم،من نقص المعلومات عن قوافل تغازا وإيجيل فمن المحتمل أن بلاد السودان كانت تتلقى نفس القدرة من هذه المعادن الغربية،ومنن أوليل ،بل أكثر من ذلك[٧٧]

أسعار الملح في بلدان السودان:

وفي محاولته التعرف على الأسعار التي كان الملح يباع بها ويلاحظ .Mauny R أن دراستها بإفريقيا الغربية،في العصر الوسيط،محفوفة بالصعاب،لأن قيمتها بالمثقال والدينار،وهو تعبير متكافئ،تقريبا،في أذهان أصحابه،ثم يتساءل نفس المؤلف عن نوعية هذا الدينار ؟ أهو دينار القرآن،كما يقول أو دينار الموحدين والمرينيين ذو ٤,٧٢٩ غ، أو ٤,٢٥ غ؟ وهو ما تدعونا دائرة المعارف الإسلامية(T.I,P.1002)إلى الأخذ به، أو هو الدينار المرابطي ذو ٣,٨٦٤ غ إلى ٣,٩٦٠ غ ودنانير أخرى تتحدث عنها المصادر[٧٨]

مع العلم أن ابن حوقل لم يقل،كما نقل عنه.Devisse Jخطأ،"إن الملح يساوي في غانة،ص ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دينار"[٧٩] بل يقول" وربما بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلثمائة دينار"[٨٠] وينقل محمد زنيبر هذه الترجمة الخاطئة أيضا وينسب ما تتضمنه من معلومات إلى ابن حوقل[٨١] وهذا غير صحيح؛ وانطلاقا من تقدير وزن حمل الملح ما بين ١٢٥ و ١٥٠ كلغ ،ومتوسط وزن الدينار بـــ ٣,٨٠ غ من الذهب قامDevisseبعملية حسابية انتهى فيها إلى تحديد تكلفة حمل الملح،بمبلغ من ذهب يترواح ما بين ٧٦٠ و ١١٤٠ غ[٨٢].

ونفس الملاحظة يمكن تقديمها لـــ.Mauny Rالذي ترجم أو نقل ترجمة خاطئة لعبارة البكري القائلة"وبلاد الغزوين يبدل الملح فيها بالذهب"[٨٣] بأن الملح يباع في بلاد الغزوين بعيدا في الجنوب،وزنه بوزن الذهب[٨٤]،أي أن قيمة وزنين متماثلين من الملح والذهب واحدة ،وراح يعلق على نص البكري بقوله:إن البكري يبالغ، بدون شك،وكل

---

77 L'économie de L'empire portugais, P119

78 Tableau geographique,P422

٧٩ أنظر.La question d'Audaguste,P.112

٨٠ صورة الأرض، ص١٠١

٨١ أنظر: تجارة القوافل في المغرب،تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٤٠٤ هـــ١٩٨٤ م ، ص١٧٩

82 op.cit.PP.112-113

٨٣ أنظر.المغرب،ص١٧٤

84 op.cit.P.302

ما نحتفظ به،أن قيمة الملح كانت مرتفعة جدا[٨٥]غير أن المتمعن في معنى "يبدل الملح فيها بالذهب"يرى أنه ليس شرطا أن يكون معناه"وزنا بمثله،كما فهمMaunyومع التسليم بوجود نوع من الغموض في هذا التعبير،إلا أننا نرجح أن يكون معناه: يبدل الملح فيها بنسبة معينة أو معتبرة من الذهب.

وقد انساق بعض الباحثين وراء فكرة.Maunyوبالغوا فيها، ومن هؤلاء الشيخ الأمين عوض الله الذي يعتبر "الملح" من أهم السلع بالنسبة للسودانيين،ولا تقل عن أهمية الذهب بالنسبة للمغاربة،ولذلك لم يبالوا في مبادلته بالذهب،وزنا بوزن"[٨٦] .

والسؤال الذي يمكن طرحه على هذا المؤلف،هو :لو كان الملح يباع كما يقول ،لماذا يحمل التجار إلى جانبه بضائع أخرى كالنحاس والودع والأقمشة وغيرها والتي تحدث عنها هو نفسه في إطار السلع المغربية التي تصدر إلى بلاد السودان[٨٧] والتي تباع كلها تقريبا بأقل من وزنها ذهبا بكثير وتشكل أحمالا كثيرة من كل قافلة تجارية،خاصة وأن الملح كان مطلوبا بكثرة في بلاد السودان وبيعه كان مضمونا؟

خلاصة القول :

فإن معدن ملح أوليل يقع على بعد شهر من مدينة أوْدغست وشهر ونصف شهر من مدينة سجلماسة،قرب جزيرة أيوني،أو أنها هي نفسها جزيرة على بعد مجرى من نهر السنغال(جنوبا) وبينها وبين نول لمطة مسافة شهرين على ساحل البحر، وقد اختفت تسمية أوليل منذ حوالي ١٨١٠ ربما يكون الأمر متعلقا بنتيرر(Nteret)أهم ملاّحات ترارزة على الساحل الموريطاني.

وهي معدن للملح في أرض قبيلة جُدّالة من بلاد المغرب، وربما قامت عليه مدينة،وكان ملحها يستغل في شكل ألواح تنقلها القوافل وربما السفن، جنوبا نحو أودغست ثم غانة أو نحو السنغال،منذ القديم قبل وصول العرب المسلمين إلى منطقة في القرن الثامن (٢ هـ) بكثير، ولكن على نطاق ضيف،وبعد هذا الوصول نشطت التجارة المغربية السودانية خاصة عبر محور سجلماسة أودغست وكان ملح أوليل أحد بضائعها الأساسية،في مقابل الذهب والرقيق من الجهة الأخرى.

وقد أدرك المرابطون أهمية تلك التجارة في تموين إدارتهم فسارعوا إلى الاستيلاء على قطبيها (سجلماسةو أودغست) وقد يرجع سبب ما حدث من صراع بين قائدهم أبي بكر بن عمر وبين قبيلة جدالة، التي كانت أوليل تقع في أرضها،إلى التنافس في السيطرة على تجارة ملحها.

---

85 Ibid

٨٦ تجارة القوافل بين المغرب والسودان اغربي وآثارها حتى القرن السادس عشر الميلادي،تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،معهد البحوث والدراسات العربية،بغداد ١٤٠٤ هـ١٤٨٤ ، ص٨٤

٨٧ نفس المرجع ، ص٨٥.

كما يدخل استيلاؤهم على غانة في إطار هيمنتهم على أسواق الملح والذهب وراحوا يسيطرون على الساحل السوداني وعلى شبكة طرق صحراء صنهاجة وازدهرت التجارة في عهدهم بطريقة لم يسبق لها مثيل غير أن طرقها، على ما يبدو،تحولت إلى النواحي الشرقية،منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (٥هــ) بعد تخريب المرابطين لأودغست،على حساب معدن ملح أوليل الذي انتقل دوره إلى معدن ملح تاتنتال(تغازا) الواقع إلى الشرق منه.

ولا يعرف ما إذا كانت القوافل تشحن الملح مرة واحدة أو مرتين في العام الواحد، والمعروف أن أصحاب تلمك القوافل كانوا،حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي،من غير السودان لكن بعد تلك الفترة نشط هؤلاء بدورهم في تجارة القوافل التي كانت الواحدة منها تضم حوالي عشرين ألف جمل،لا تقل قدرة حمولتها عمّا يقارب الألف طن من الملح، إضافة إلى أكياس الماء والأمتعة.

ومن الصعوبة بمكان التعرف على الأسعار التي كان الملح يباع بها في إفريقية وكل ما توصلنا إليه، في هذا الموضوع.هو قول ابن حوقل" **ربما بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلثمائة دينار**"، وقول البكري"**وبلاد الغزو يُبدل فيها بالذهب**".